عِلل سيبويه العقلية في مسائله الصوتية والصرفية في الكتاب

م. م: شفاء علي مانع أ.د: فالح حسن كاطع

كلية التربية للعلوم الانسانية/جامعة بابل

الكلمات المفتاحية: المرجعية، العقل، الكتاب، سيبويه، المسائل الصوتية الصرفية.

The mental reference in phonetic and morphological issues at Sibawayh in his book

Prof. Dr: Faleh Hassan Kat M.M: Shefaa Ali Manea

College of Education for Humanities/University of Babylon

Keywords: reference,mind,book,Sibawayh,phonetic issues,banking

Email: Shefaaali43@gmail.com

Abstract.

The first grammarians paid attention to phonetic and morphological issues, and phonetic studies occupied the most important grammatical booksm, especially (the book), it included valuable chapters in morphological studies as well as phonetic, Sibawayh did not make the morphological and phonetic chapters at the beginning of the book as the modernists do ,but made the phonetic study in the last chapters of the morphological study, noted many morphological formulas that can only be interpreted in the light of phonetic standards, the matter can be applied to dictionaries and books of Quranic readings, as an important source of phonetic research, and Sibawayhs mental reference in the phonetic and phonetic and morphological aspects is what you will try to prove in this research by means of concrete evidence from the same book. .

الملخص:

عُني النحويون الأوائل بالقضايا الصوتية والصرفية, وشغلت الدراسات الصوتية أمَّات الكتب النحوية ولاسيما(الكتاب)، فقد ضمّ أبوابًا قيّمة في الدراسات الصرفية فضلاً عن الصوتية, ولم يجعل سيبويه الأبواب الصرفية والصوتية في أول الكتاب كما يفعل المحدثون، وإنَّما جعل الدراسة الصوتية في آخر أبواب الدراسة الصرفية، لاحظ سيبويه صيغًا صرفية كثيرة لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء المعايير الصوتية، وظلّ البحث الصوتي عند كبار النحويين العرب جزءًا مكملاً للبحث الصرفي، لذلك يُعَد البحث الصوتي أصلاً في التراث العربي ويمكن سريان الأمر على المعجمات وكُتُب القراءات القرآنية، بوصفها مصدرًا

مهماً من مصادرِ البحث الصوتي، ومرجعية سيبويه العقلية في الجوانب الصوتية والصرفية واضحة في كتابه، وهذا ما سنحاول اثباته في هذا البحث بوساطة الادلة الملموسة من الكتاب نفسه.

توطئة:

زَخر كتاب سيبويه بمسائل وظواهر نحوية عديدة، شغلت الدارسين والباحثين قديماً وحديثاً، وقد التفت الدكتور فالح الأسدي إلى خصيصة ميّزة عَمِل عليها سيبويه في كتابه، ألا وهي إحالة كتاب سيبويه على عدة مرجعيات اتضحت بوساطة نصوص الكتاب، وقد عكفت على قراءته واستخراج إحدى تلك المرجعيات وهي المرجعية العقلية، وهي تُعنى بالمسائل العقلية التي يلعب فيها الفكر اللغوي دوراً بارزاً، وقد انتخبت عدة مسائل صوتية وصرفية برَّزت فيها هذه المرجعية ألا وهي: (ظاهرة موقع الصوت، ظاهرة الجهر والهمس، التعليل عند قلب الواو ياء إذا سبقت بكسرة وجاء بعدها ألف، التقاء الساكنين، ظاهرة التخفيف، الترك أو الاستغناء، الإتباع الحركي، الرد إلى الأصل)، تجدر الاشارة إلى أنَّ هنالك الكثير من الظواهر التي قد أكون غفلت عنها، على أمل أن يتسنى لباحث آخر الكشف عنها في قابل الأيام.

أولاً: موقع الصوت.

تَنَبَّه سيبويه إلى تأثير موقع الكلمة على صوتها، ففي باب (ما كانت الياء والواو فيه لامات)، قال سيبويه: ((اعلم أنهنَّ لامات أشد اعتلالاً وأضعف لأنهنَّ حروف إعراب وعليهن يقع التنوين، وبالإضافة إلى نفسك بالياء، والتثنية، والإضافة نحو: هنِيٍّ ، فإنما ضعفت لأنَّها اعتُمِدَ عليها بهذه الأشياء، وكلما بعدتا من آخر الحرف كان أقوى لهما، فهما عينات أقوى ، وهما فاءات أقوى منهما عينات و لامات ، وذلك نحو : غَزَوْتُ ، وَ رَمَيْتُ))[١].

يُبَيّن سيبويه في هذا النص ما يجري للأصوات بسبب الموقع الإعرابي الذي تشغله المفردات الحاملة للياء والواو، فموضع هذه الأصوات في مفرداتها تكون أكثر اعتلالاً، ثم يكشف النص أنَّ هذه الأصوات كلما ابتعدت من موضع اللام إلى العين، أو الفاء كانت بمنأى عن التأثيرات الصوتية الناجمة من الموقع الإعرابي، ونستعرض مثالاً آخر في باب الندبة، يقول سيبويه: ((إذا وافقت ياء الإضافة ألفًا لم تحرك الألف، لأنها إن حُرِّكَت صارت ياءً، والياء لا تدخلها كسرة في هذا الموضع، فلما كان تغييرهم إياها يدعوهم إلى ياء أخرى وكسرة تركوها على حالها كما تُرِكت ياءُ (قاضي)، إذ لم يخافوا التباسًا وكانت أخف، وأثبتوا ياء الإضافة ونصبوها لأنه لا ينجزم حرفان ، فإذا ندبت فأنت بالخيار إن شئت ألحقت الألف كما ألحقتها في الأول، وإن شئت لم تلحقها، وذلك قولك : وامثّناياه، وامثّناي))[٢] ، ويُلاحظ أنّ سيبويه يعرض بفكره العميق الخيارات الصوتية المتأثرة بالأثر النحوي على وفق تعليلٍ صوتيٍ ينسجم مع الرأي العلمي.

ثانياً: الجهر والهمس.

عرّف سيبويه الجهر والهمس بقوله:((فالمجهور: حرف أُشبعَ الاعتمادُ في موضعه، ومنع النفَسَ أنْ يجريَ معه حتى ينقضيَ الاعتماد عليه ويجري الصوت،[...] والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثمّ تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخلَّ بهما، أما المهموس فحرف أُضعِفَ الاعتمادُ في موضعه، حتى جرى النَفَسُ معه،[...] فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمدِّ، أو بما فيها منها، وإن شئت أخفيت))[٣]، سعى المحدثون إلى معرفة دقائق ما جاء به سيبويه بهذا الخصوص، لذا بَيَّنَ الدكتور ابراهيم أنيس مُراد سيبويه في كلامه عن الجهر والهمس وذكر أمرين:

الأول: إشباع الاعتماد.

الثاني: منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه في المجهور .

وَ ذَكَر أَنَّ المراد من الأول(إشباع الاعتماد)، هو قوة الوضوح السمعي[٤]، وهذا هو معنى الجزء الأول من قول سيبويه، ثمَّ قال: ((عملية إصدار الصوت تلك العملية التي تلازم النفس منذ خروجه من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجي .... ولأمر ما

عبّر سيبويه بقوله (أشبع الاعتماد في موضعه) ولم يقل في مخرجه لأنه كان يشعر بهذا الإشباع في كل مجرى الصوت منذ خروجه من الرئتين إلى انطلاقه إلى الخارج))[٥] ، ثم ذكر المراد من الأمر الثاني وهو استشعار سيبويه لاقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر حتى يكادا يسدان طريق التنفس، وهنا نشير إلى أنَّ الحنجرة التي تضم الوترين الصوتيين لم تكن معروفة في عصر سيبويه، ولا أثر لها غير ما يمكن القول: إنَّها جزء من الصدر في كلام سيبويه عن الأصوات بصورة عامة ، لذلك إنَّ قراءة الدكتور إبراهيم أنيس تدلّ، على أنَّ عبارات سيبويه ودقته عند وصف الأصوات هي آخِر ما توصل إليه علم اللغة الحديث من تعريف لمسألة الجهر الذي يعني اهتزاز الوترين الصوتيين عند النطق بالصوت ((فالصوت المجهور هو الذي يهتز معه الوتران الصوتيان))[٦].

وسأنتخب صوت الهمزة وصفتها عند سيبويه، ومعرفة السبب العقلي والعلمي الثاوي وراء الحكم عليها بأنَّها مجهورة عنده، عرَّف سيبويه الهمزة بأنها: ((النبرة في الصدر والتي تخرج باجتهاد، ومن ثم فهو يرى بأنها أبعد الحروف مخرجًا، فثقل ذلك، وهذا لأنه عدَّها كالتهوع))[٧] ، وقد عرفها المبرد بأنها: ((حرف يتباعد مَخْرَجهُ عن مخارج الحروف ولا يشرَكه في مخرجه ولا يُدانيه إلا الهاء والألف))[٨]، وحظي صوت الهمزة بمرتبة خاصة عند النحويين كونها تعد صوتاً أساسياً في الكثير من اللغات، وليست اللغة العربية وحدها[٩]، ولم تزلْ الهمزة عند المحدثين عصيّةً على التصنيف بين الجهر والهمس، أو الشدة والرخاوة ((وفي الحقيقة أن الهمزة تبدو غير ثابتة، ولا تشكّل نمطًا محددًا))[١٠]؛ وذلك لأنها قائمة على صوت مختلف ومتباعد عن كل الحروف من حيث الصفة و المخرج، إلى أن الهمزة من الحروف المجهورة وإلى ذلك ذهب الرافعي[١١]، والدكتور علي عبد الواحد وافي[١٢]، والدكتور صبحي الصالح[١٣]، وبحسب تعريف سيبويه للهمزة فهي تُعد من أبعد الأصوات العربية، وأدقّها مخرجًا، صار لزاماً أن تتصف بالجهر وليس الهمس، والدليل هو الشعور بقوة هذا الحرف عند النطق به، و أثبتت المختبرات الصوتية ما يَظهر من قوة وعدم ثبات للهمزة عند نطقها، لكونها لا تشكّل نمطًا محددًا[١٤]، وعدم تشكيلها لنمطٍ محدد قد يعزى الى قوة النبر فيها ومن ثَمَّ اهتزاز الأوتار الصوتية بقوة، وهذا يدل على ما أتصف به سيبويه من دقة الملاحظة، والعقلية الناضجة، فهو يحلل الظاهرة الصوتية بعد تجريبها بأدواته اليسيرة وهو النطق بها فقط، والاعتماد على حاسته الذوقية العالية إلى جانب فِكْرِهِ العميق، لِيُظهِر لنا نتائج أبهرت القدامى والمحدثين، و هذه النتائج احتاجت إلى المختبرات الصوتية لإظهارها في وقتنا الحاضر، فسيبويه لديه قدرة عقلية عالية على استشعار طبيعة الأداء الصوتي تمكنه من الإحساس بما يجري في الرئة والحنجرة من غير أن يعرف لتلك الأعضاء اسماً.

ثالثاً: التعليل عند قلب الواو ياء إذا سبقت بكسرة وجاء بعدها ألف.

ذَكَر سيبويه تعليلاً في قلب الواو ياءً فقال: ((هذا باب تقلب الواو فيه ياء لا لياء قبلها ساكنة، ولا لسكونها وبعدها ياء، وذلك قولك: حالت حِيالاً، وقمت قِياماً، وإنما قلبوها حيث كانت معتلة في الفعل، فأرادوا أن تعتل إذا كانت قبلها كسرة وبعدها حرف يشبه الياء، فلما كان ذلك فيها من الاعتلال لم يقروها؛ وكان العمل من وجه واحد أخف عليهم وجسروا على ذلك للاعتلال، ومثل ذلك: سَوْط وسياط، ثوب وثياب، روضة و رياض [...] و أما ما كان قد قلب في الواحد فإنه لا يثبت في الجمع إذا كان قبله الكسر؛ لأنهم قد يكرهون الواو بعد الكسرة حتى يقلبوها فيما قد ثبتت في واحده، فلما كان ذلك من كلامهم ألزموا البدل ما قلب في الواحد، وذلك قولهم: دِيَمة و دِيَم، وقامة و قِيَم، وتارة وتِيَر، ودار و دِيار، وهذا أجدر أن يكون إذا كانت بعدها ألف، فلما كانت أخف عليهم، والعمل من وجه واحد، جسروا عليه في الجمع؛ إذ كان في الواحد محوَّلاً، واستثقلت الواو بعد الكسرة، كما تستثقل بعد الياء))[١٥] ، وتابَعَ أبو علي الفارسي ما ذهب اليه سيبويه من تعليل لهذه الظاهرة الصرفية حيث قال: ((ومما قلبت فيه الواو ياء قولهم: عُذْت عياذاً، وقمت قياماً، أعلّوها بالقلب كما أعلوها في الفعل، ومثل ذلك: حَوْض وحياض، وثوب وثياب؛ لأنها أشبهت بالسكون (داراً) فكما قالوا (دِيار)، كذلك قالوا: حِياض، ومثل ذلك قولهم: اجتزت

اجتيازاً، وانقدت انقياداً، قلبت لاعتلالها في الفعل، ولم تحذف كما حذفت في الاستجادة لسكون ما قبل حرف العلة، وتحركه في الانقياد، فأما (الجِوار) و (اللِّواذ) فصحت لصحتها في الفعل))[١٦].

والظاهر ان سيبويه كان يقصد في كلامه: أن تقع الواو عيناً لجمع صحيح اللام وقبلها كسرة، وهي في الواحد إما معلة أو شبيهه بالمعلة، وبهذا يتبين ان الكسرة لا توجب الاعلال وحدها إلا اذا اقترنت بها ضمائم اخرى تعينها عليه في إثبات تأثيرها، وهذا ما تَنَبَّه إليه سيبويه بعقليته الكبيرة، عندما علل هذه الظاهرة بطريقة علمية تُنبئ عن فِكر عميق، وإجادة مع تمكن تام من كل ما يخوض فيه من مسائل.

رابعاً: التقاء الساكنين.

لجأ سيبويه إلى الحذف في هذه المسألة الصوتية خوفاً من التقاء الساكنين، قائلاً: ((... باب ما شذّ من المضاعف فشُبّه بباب أقمت وليس بمتلئِبّ ... وإذا كان في موضع يحتملون فيه التضعيف لكراهية التحريك، حذفوا؛ لأنه لا يلتقي ساكنان))[١٧] ، وضرب مثلاً بالفعل (أحسّ) عند إسناده إلى ضمائر الرفع المتحركة؛ فالعرب عندما تقول : في أحسَسْتُ : أحَسْتُ وأحَسْنَ في أحْسَسْنَ تشبّه بباب أقمت ؛ لأنهم أسكنوا الأولى فلم تكن لتثبت والثانية ساكنة[١٨]، فتكون الصورة المرفوضة : أحَسْسْتُ ولا يلتقي ساكنان في كلمة فلذلك عمدوا إلى حذف الثانية تشبيهاً بباب أَقَمْتُ فالفعل (أحسَّ) الساكن الأول منه حرف صحيح اجتمع مع حرف من جنسه فأُدغما فصار الفعل بهما مضاعفاً ، ونستطيع التخلص من التقاء الساكنين فيه عند إسناده بطريقتين الأولى فكّ الإدغام ، والثانية حذف الساكن الأول، والطريقة الثانية هي التي يلتقي فيها الفعلان (أقام وأحسّ) فالفعل (أقام) عند إسناده لتاء الفاعل نقول: (أَقَمْتُ) ؛ لأنّ الميم لا بدّ من إسكانها لأجل الضمير ، فالتقى ساكنان ، وهذا لا يجوز فيجب الحذف لذلك[١٩]، فلا وسيلة للتخلص من التقاء الساكنين إلا الحذف، والساكن الأول الذي أصله التحريك أولى بالحذف؛ لأنّ الإدغام في هذا الفعل ممتنع؛ ولأنّ ثاني المتجانسين ساكن، وشرط الإدغام أن يكون الثاني متحركاً[٢٠]، فيكون الإدغام في المضاعف واجباً، إذا كان الحرفان المتشابهان المتجاوران متحركين، فعند إسناده إلى ضمائر الرفع المتحركة يجب فكّ الإدغام لتحرّك أول الحرفين المتشابهين وسكون الثاني[٢١]، نجد سيبويه أنَّه يلتمس للظاهرة الصوتية والصرفية تفسيرات مختلفة، ومسوغات فكرية تنم عن دراسة مستفيضة لمعالم اللغة على جميع مستوياتها، ومنها ظاهرة التقاء الساكنين، فإذا التقى ساكنان في كلمة واحدة، أو في كلمتين وجب التخلص من التقائهما إما بحذف أولهما أو تحريكه، فيحذف الأول صوتاً وخطاً إن كان حرف مدٍّ نحو : قُلْ وبِعْ وخَفْ ، حيث وقع الحذف على أحرف المدّ : الواو والياء والألف[٢٢].

خامساً: ظاهرة التخفيف.

يُقصد بالتخفيف أو الخِفَّة في اللغة: أن يكون اللفظ خفيفاً على لسان الناطق ، فيبقيه على حاله من دون تغيير، وهي ثابتة في اللفظ لا طارئة عليه ، وقد دعا إلى وجودها اتّساق حروف اللفظ ، وابتعادها عن الثقل والتنافر في البناء والخفّة عند سيبويه تظهر في أحرف المد واللين والحركات التي هي أبعاضها، وتتعلق هذه المسألة في تقسيم سيبويه للحركات حسب خفّتها وثقلها ، وكذلك الحروف ، فإذا جاءت هذه الحركات والحروف مُتّسِقَة في اللفظ تكون خفيفة فمثال خفة هذه الحركات قوله في باب المصادر: ((وقالوا: شحيح والشُّح كالبخيل والبُخل، وقالوا : شَحّ يَشِحُّ . وقالوا : شَحِحْت كما قالوا : بَخِلتَ ؛ وذلك لأنّ الكسرة أخفّ عليهم من الضمة ، ألا ترى أنّ فَعِل أكثر في الكلام من فَعُل والياء أخفّ عليهم من الواو وأكثر))[٢٣].

ففي هذا النص ذكر سيبويه أنّ العرب قالوا : شَحِحْتُ بالكسر ولم يقولوا : شَحُحتُ بالضم ؛ لخفة الكسرة وثقل الضمة ، واستدل على ذلك بكثرة ورود الفعل مكسور العين قياساً إلى مضمومها في كلام العرب ، ولا شك في أنّ العرب تميل إلى الأخف .

ففي هذا المثال ظهرت الخفة في الحركات وأثرها في بناء اللفظ وجنوح العرب إلى أخفها، أما الخفة في الحروف فتظهر في اشتقاق الفعل المثال وهو عند سيبويه ما كانت فاؤه ياءاً أو واواً ، فالعرب تشعر في الياء سهولة، وفي الواو ثِقلاً ،

والدليل هو أنها تحذف الواو في مضارع الفعل المثال مثل : وَرِث يَرِث ، وورِع يَرِع ، ووغِر يَغِر ، ولم يقولوا : يَورِث ولا يَوْرِع ولا يَوْغِر ؛ ((لصعوبة الانتقال من الياء المفتوحة إلى الواو ، ثم من الواو إلى الكسرة ؛ لما في كل نُقْلةٍ من الجمع بين شيئين يُشبه أمرهما أمر المتضادين فحذفوا الواو ؛ إذ هي التي أوجدت هذين الثقلين)) [٢٤].

أما الياء في هذا الفعل (المثال) فلا تحذف لخفتها وسهولتها[٢٥]، ولأنّ العرب يفرّون إليها من ثقل الواو أحياناً ، قال سيبويه : ((وأما ما كان من الياء فإنه لا يُحذف منه ، وذلك قولك يَئِس يَيْئِس ويَسَر يَيْسِر ، ويَمَن يَيْمِن ؛ وذلك أنّ الياء أخف عليهم ؛ ولأنهم قد يفرّون من استثقال الواو مع الياء إلى الياء في غير هذا الموضع ولا يفرّون من الياء إلى الواو فيه، وهي أخفّ ... فلما كان أخفَّ عليهم سلّموه))[٢٦]، فلا تحذف الياء في مضارع هذا الفعل لخفتها، وقد جمع سيبويه في قول بين خفّة الفتحة وخفة الألف عندما علَّل عدم قلب الواو ياء في مَوْعِد ومَوقِف فقال : ((لم تُقْلَب ألفاً لخفة الفتحة والألف عليهم . ألا تراهم يفرّون إليها ... وإنما خَفّت الألف هذه الخفّة ؛ لأنه ليس منها علاج على اللسان والشفة ، ولا تُحرّك أبداً ، فإنما هي بمنزلة النَّفَس فمن ثمّ لم تثقل ثقل الواو عليهم ولا الياء لما ذكرت لك من خفة مئونتها))[٢٧].

فالمسألة هنا راجعة إلى ذوق الناطق وشعوره بثقل اللفظ وخفته فيتحرّى ما كان خفيفاً منه، ويتجنّب ما ثُقُل وازدادت مؤونته، فنجد سيبويه من خلال استنتاجاته وتعليلاته لفت نظر كثير من علماء الصرف والصوت الى هذه الظاهرة كغيرها من الظواهر معتمداً على تعليلات عقلية محكمة مبنية على قواعد علمية مستقرة، فأجد سيبويه عند استنتاج قاعدة وربطها بالأحكام النحوية، يقوم بتحليل النصوص لتبسيط ما حملته من أحكام متنوعة على كثرتها، وهذه بلا شك لا تتهيأ إلا لمن خَبَرَ اللغة وأجاد فيها.

سادساً: الترك أو الاستغناء.

إنَّ من المسائل الصوتية المهمة التي توصَّل إليها سيبويه في تفكيره الصوتي، هي الترك أو الاستغناء، إذ حاول سيبويه بواسطة هذه الظاهرة التَّوصل إلى سهولة النطق والخِفّة، ومن أمثلة الاستغناء في كتاب سيبويه، استغنائه عن الحروف من مثل همزة الوصل التي تُجتلب للتوصّل للنطق بالساكن؛ لأنّ النطق به أوّلاً مُتعَذّر، حتى إذا زال الغرض من اجتلابها استغني عنها، وضرب سيبويه مثلاً فقال: ((وذلك قولك في استِضْراب : تُضَيْرِيب ، حذفت الألف الموصولة ؛ لأنّ ما يليها من بعدها لا بُدَّ من تحريكه ، فحذفت ؛ لأنهم قد علموا أنها في حال استغناءٍ عنها))[٢٨]، فاستغني عن الهمزة لزوال الضرورة لاجتلابها واستغني عنها لعلتين اثنتين إحداهما : تحرّك ما بعدها؛ لأنها إنما أُدخِلت لسكونه، والثانية : لأنها زائدة أصلاً وليست من أصل الكلمة[٢٩]، وعدّ بعض الباحثين هذه الظاهرة، من الظواهر المتصلة بالرغبة في الاقتصاد اللغوي[٣٠]، وذكر بعضهم أنّ (علة الاستغناء) ترتبط (بالثقل والخفّة) ، فربما استغني عن لفظ لثقله في الكلام وجيء بالآخر لخفّته ، والدليل على ذلك أنّ سيبويه قال في باب صَوْغ بناء (مَفْعَلَة) لتكثير الشيء بالمكان: ((وذلك إذا أردت أن تُكَثِّر الشيء بالمكان مثل، أرض مَسْبَعَة ومأسَدة ومَذأبة[٣١]، فسيبويه يُوجِب صوغ هذا البناء من الثلاثي فقط، قال: ((وإنما اختصوا بها بنات الثلاثة لخِفّتها))[٣٢] ، فالعلاقة بين هذه الصيغة (مَفْعَلَة) وبين الثلاثي أنّ الثلاثي هو أخفّ الأبنية.

إذا ظاهرة الاستغناء من الظواهر المهمة ، إذ راعتها العرب في كلامها ، وتناولها العلماء بالبحث ، وهم في كل ذلك غير غافلين عن المحافظة على المعنى ، فلا بدّ في المستغنى به من دلالة على المستغنى عنه، قال أبو البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ) : ((وقد يُستغنى بالحرف عن الحرف في بعض الأحوال إذا كان في معناه))[٣٣].

سابعاً: الإتباع الحركي.

لم يفرد سيبويه لهذا الموضوع باباً خاصاً به أسوة بغيره من الموضوعات ، بل هو مبثوث في مباحث متفرقة من الكتاب، وغايته واحدة، وهي الميل نحو الانسجام والتوافق والاقتصاد في الجهد المبذول[٣٤]، والجوار هو ما يتركه الصوت من أثر في مجاوره أو ما تتركه اللفظة في مجاورتها، وقد يكون أثر المجاورة بين كلمتين في التركيب، يؤثّر الصوت الأخير من

الكلمة الأولى بالأول من الكلمة الثانية بأثر تقدمي، أو بتأثّر الأخير من الكلمة الأولى بحركة الأول من الثانية بأثر رجعيّ مثل قراءة (الحمدُ لُله ، والحمدِ لِله)[٣٥]، أو يكون التأثير بين صوتين في الكلمة بقصد التخفيف، وهو ما يسمّى بالإتباع الحركيّ .

والإتباع هو ((ظاهرة من ظواهر التطور في حركات الكلمات، فالكلمة التي تشتمل على حركات متباينة تميل في تطوّرها إلى الانسجام حتى لا ينتقل اللسان من ضمٍّ إلى كسر إلى فتح في الحركات المتوالية)) [٣٦]، ويُمثل الإتباع الحركي نزوعاً إلى تقليل الجهد المبذول وسبيلاً من سبل التطوّر في الأصوات [٣٧]، ويعدّ عامل الانسجام بين الحركات وتأثير بعضها في بعض عاملاً رئيساً في حدوث ظاهرة الإتباع الحركي[٣٨].

تنبَّه القدماء إلى هذه الظاهرة وفسَّروها تفسيراً صوتياً وتابعهم المحدثون ، فقد أشار سيبويه إلى هذه الظاهرة حينما فسّر جنوح لهجة تميم إلى كسر الفاء في صيغة (فَعِيْل وفَعُل) إذا كان ثانيه أحد حروف الحلق[٣٩]، قال في ((باب الحروف الستة إذا كان واحد منها عيناً وكانت الفاء قبلها مفتوحة وكان فَعِلاً ... وفي فَعِيْل لغتان : فَعِيْل وفِعِيْل إذا كان الثاني من الحروف الستة. مطّرد ذلك فيهما لا ينكسر في فَعِيل ولا فَعِل ، إذا كان كذلك كسرت الفاء في لغة تميم ، وذلك قولك : لِئِيم وشِهِيد وسِعِيد ونِحِيف ورِغِيف ... وشِهِد ولِعِب وضِحِك ... وكذلك فِعِل إذا كان صفة أو فعلاً أو اسماً ...))[٤٠]، وإنما جنحت لهجة تميم إلى الإتباع في هذه الأمثلة ؛ لأنّ ذلك ((أخفّ عليهم ، حيث كانت الكسرة تشبه الألف ، فأرادوا أن يكون العمل من وجه واحد ، كما أنهم إذا أدغموا فإنما أرادوا أن يرفعوا ألسنتهم من موضع واحد))[٤١]، هنا تَجلّت دقة سيبويه في ملاحظة الظواهر الصوتية وتسجيلها، والبحث عن السبب الذي حدا بظهور الصوت على شاكلة دون اخرى، وجاء بعد سيبويه ابن جني وعقد باباً في الخصائص أسمّاه (باب في الجوار) [٤٢]، وقسّمه على ضربين : أحدهما تجاور الألفاظ ، والآخر : تجاور الأحوال ، وقسّم تجاور الألفاظ على ضربين أيضاً ، أحدهما : في المنفصل والآخر في المتصل[٤٣].

هذا يدل على سبق سيبويه في فطنته لهذه الظاهرة وتعليلها، وهو ترجيح عقلي يُضاف إلى سجل ترجيحات سيبويه العقلية وفكره الناضج.

ثامناً: ظاهرة الرد إلى الأصل.

ومن ذلك في حديثه على تصغير كلمة (فم ، وماء) يقول سيبويه: ((ومن ذلك فَمٌ تقول : فُوَيْهٌ يدُلّك على أنّ الذي ذهب لام ، وأنها الهاء قولهم : أفواه ، وحذفت الميم ورَدَدْت الذي من الأصل ، كما فعلت ذلك حين كسّرته للجمع ، فقلت : أفْواه . ومثله مُوَيْه ردّوا الهاء كما ردّوا حين قالوا : مِياه وأمْواه))[٤٤]، وقد استدل سيبويه بالرجوع إلى الأصل في معرفة الحرف الزائد فذكر في ((باب علل ما تجعله زائداً من حروف الزوائد وما تجعله من نفس الحرف))[٤٥]، أنَّ الهمزة تجيء زائدة أولاً، واستدل على زيادتها ، أنها لا تثبت في المضارع ؛ فمثلاً الهمزة في (أكرم) لا تثبت في المضارع فلا تقول: (يُؤَكْرِم) وهي مثل الفعل (وعد) ومضارعه (يَوْعِد) على الأصل، حذفوا الواو وعوّضوا التاء في المصدر فقالوا : (يَعِد) في الفعل و(عِدَة) في المصدر، فكما ذهبت الواو في (يَوْعِد) وهي غير زائدة ، فهي أجدر أن تذهب في (يُؤَكْرِم)؛ لأنها زائدة[٤٦]، فالهمزة تلحق أولاً مع ثلاثة أحرف أصول فتكون مزيدة أبداً[٤٧]، وقد تتسع علة (الرد إلى الأصل) حتى تكون علة لازمة، فعندما يتحدّث سيبويه عن تصغير (بنات الحرفين)[٤٨]، يعمِّم قاعدة تطّرد في كل ما كان على حرفين، قال: ((اعلم أنّ كل اسم كان على حرفين فحقّرته رددته إلى أصله حتى يصير على مثال فُعَيْل، فتحقير ما كان على حرفين كتحقيره لو لم يذهب منه شيء وكان على ثلاثة، فلو لم تَرُدُّه لخرج عن مثال التحقير، وصار على أقلّ من مثال فُعَيْل))[٤٩]، فأوجب ردّ الحرف إلى أصله في كل الباب ؛ كي يستوفي بناء التصغير ولا يخرج عن مثال فُعَيْل؛ لأنه أقل الأبنية في التصغير، أما إذا كان في الكلمة ما يستوفي معه بناء التصغير حروفه ولم يخرج بسببه عن مثاله ، فلا يلزم الرد إلى الأصل ، وعقد سيبويه لهذا باباً سمّاه : ((باب تحقير ما حذِف منه ولا يُردّ في التحقير ما حُذِف منه ، من قبل أنّ ما بقي إذا حُقِّر يكون على مثال المُحقّر ولا يخرج من أمثلة التحقير))[٥٠]، وضرب لذلك مثلاً بكلمة مَيْت وتصغيرها : مُيَيْت ، وإنما الأصل ميّت، غير أنك حذفت العين ، ومثله تصغير (هار) تقول: (هُوَير) ، وإنما الأصل هائر غير أنهم حذفوا الهمزة كما حذفوا ياء ميّت [٥١]، ووجه الحذف في (ميّت وهائر)

أنه للتخفيف لا لعلة توجِب ذلك فلا داعي لأن تُردّ في التصغير إلى الأصل ، لأنّ ما بقي يستوفي بناء التصغير فهو على ثلاثة أحرف[٥٢]، ومنع سيبويه تصغير (هار) على هويئر ؛ بالرد إلى الأصل ؛ لأنّ التصغير في هذه الحال سيكون على غير الأصل في بعض الأسماء ، فكأنّ من حقّر (هاراً) على (هويئر) كأنه صغر (هائراً) على الأصل كما أنّ من صغّر (رجلاً) على (رُوَيجِل) فكأنه صغّر (راجلاً) والسبب وراء منع سيبويه لهذا الوجه هو مخالفة القياس[٥٣].

لذا نحكم على معالجات سيبويه للمسائل الصوتية بقدرة عقلية كبيرة، كما أوضحنا، كما أنَّه في المسائل الصرفية لم يُغيِّب الموضوعية في ما أدلى به، وكثيراً ما نجده يُورد استدلالات عقلية، بعيدة عن التعقيد ويعتمد على قواعد تصريفية تتأثر فيها الحروف بعضها ببعض، وللقارئ أن يتَلَمّس من خلال هذا النص على أسلوب سيبويه وفِكرِهِ وظهور المسحة التعليمية العلمية في كل مفصل من مفاصل النص . تقول د. خديجة الحديثي : ((فنحن نرى سيبويه يُعلل الأحكام بعّلة واحدة واضحة ولا تتركب العلل عنده ، وليس في كتابه علّة إلا وتُبيّن حكماً أصلياً يعلمنا كيف ننطق العبارات على الوجه الصحيح بحيث نفيد المعنى الصحيح الذي نقصده وليس فيه ما يُسمّى عند المتأخرين بالعلل الثواني أو الثوالث))[٥٤]، وليس أدل من ذلك على اعتماد سيبويه على القسمة العقلية في عرض المسائل والاستدلال عليها ولها.

النتائج:

١- تنبَّه سيبويه إلى موقع الصوت وما له من تأثير على صفته ومن ثَمَّ على الكلمة، وما يطرأ عليها بسبب فعلها الإعرابي، وهو بذلك يُعد الرائد في هذه المسألة الصوتية.

٢- حلل سيبويه الظاهرة الصوتية بعد تجربتها بأدواته اليسيرة، معتمداً على حاسته الذوقية العالية إلى جانب فكره العميق

٣- غالباً ما يتلمس سيبويه للظاهرة الصرفية والصوتية مسوغات فكرية وتفسيرات مختلفة تنم عن دراسته المستفيضة لمعالم اللغة وفكره العميق.

٤- بَيَّن سيبويه أنَّ الشعور بثقل اللفظ وخفته يرجع إلى ذوق الناطق وهذا ما وضحناه في ثنايا البحث وتحديداً في ظاهرة التخفيف .

٥- بعد الخوض في هذه الظواهر والمسائل الصوتية منها والصرفية، نستطيع الحكم على معالجات سيبويه بأنَّها ذات قدرة عقلية كبيرة، لاسيما منعه لتصغير (هار) على هويئر بالرد إلى الأصل؛ لأنَّ التصغير في هذه الحال سيكون على غير الاصل، وما هذا إلّا غيض من فيض من المسائل والظواهر العقلية عند سيبويه في كتابه.

الهوامش

[١] الكتاب، لسيبويه الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو بشر، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨ : ٣٨١/٤.

[٢] المصدر نفسه: ٢٢٣/٢.

[٣] الكتاب، لسيبويه: ٤٣٤/٤.

٤-ينظر: الأصوات اللغوية : د- ابراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٨٤م: ١٦٩.

٥-المصدر نفسه: ١٢٥.

٦-اللغة العربية مبناها ومعناها، اللغة العربي؛ معناها ومبناها، الدكتور تمّام حسّان، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٧٩ م : ٤٠.

٧-الكتاب: لسيبويه: ٣/٥٨٤.

٨-المقتضب، أبو العباس المبرّد (ت:٢٨٥ هـ)، تحقيق : محمّد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة ، القاهرة ، ١٩٩٤م: ١/١٥٥.

٩-ينظر: الأصوات اللغوية: ٨٩-٩٠.

١٠-التشكيل الصوتي في اللغة العربية، الدكتور سلمان العاني، ترجمة ياسر الملاح، جدّة ، ١٩٨٣م: ٩٥.

١١-ينظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي ، تحقيق: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، مصر، ط ٢، ١٩٤٠ م ١/٨٢.

١٢-ينظر: فقه اللغة :علي عبد الواحد وافي، الناشر: نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤: ١٦٦ – ١٦٧.

١٣-ينظر: دراسات في فقه اللغة ، الدكتور صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط ٧ ، ١٩٧٨ م : ٣٨١.

١٤-ينظر: التشكيل الصوتي: ٩٠.

١٥-الكتاب: لسيبويه: ٤/٣٦٠-٣٦١.

١٦-التكملة، محمد بن عبد الله البلنسي ابن الأبّار، تحقيق: عبد السلام الهراس، الناشر: دار الفكر للطباعة- لبنان، ١٩٩٥ : ٥٩٢.

١٧-الكتاب: لسيبويه : ٤/٤٢١. ٤٢٢ .

١٨-المصدر نفسه : ٤/٤٢٢ .

١٩-ينظر: النكت في تفسير كتاب سيبويه ، يوسف بن الحجاج المعروف بالأعلم الشنتمري (ت٤٧١هـ) ، تح : زهير عبد المحسن سلطان ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الكويت ، ط١ ، ١٩٨٧م : ٢/١٢٣٤، والممتع في التصريف، ابن عصفور الأشبيلي (ت٦٦٩هـ)، د. فخر الدين قباوة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط٥ ، ١٩٨٣م : ٦٦١.

٢٠-ينظر: ملاح الألواح في شرح مراح الأرواح للعيني ، القسم الثالث : مجلة المورد : مج : ٥ ع ٢ ، ١٩٧٦م ، تح : عبد الستار جواد : ١٧٧ .

٢١-ينظر: الصرف الواضح ، د. عبد الجبار علوان النايلة ، بغداد ، د. ط ، ١٩٨٨م: ٥٣.

٢٢- ينظر: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الاسكندرية (د-ت): ٦٥ ، ينظر: إلتقاء الساكنين والتخلص منه في ضوء الدرس الصوتي الحديث، صباح عطيوي عبود، (أطروحة دكتوراه) ، كلية الآداب / جامعة بغداد، ١٩٩٨م: ٧-٨.

٢٣- الكتاب: لسيبويه: ٤/٣٧ .

٢٤-دروس التصريف ، القسم الأول في المقدمات وتصريف الأفعال ، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، مصر ، ط٣ ، ١٩٥٨م: ٩٠ .

٢٥-ينظر: كتاب المفتاح في الصرف، عبد القاهر الجرجاني، (ت٤٧١هـ)، تح: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٧م : ٧١.

٢٦-الكتاب: لسيبويه : ٤/٥٤.

٢٧-المصدر نفسه: ٤/٣٣٥. ٣٣٦ .

٢٨-الكتاب: لسيبويه : ٤٣٣/٣ .

٢٩- ينظر: المقتضب : ٢٦٨/٢ .

٣٠-ينظر:الأسس المنهجيّة للنحو العربيّ . دراسة في كتب إعراب القرآن الكريم ، الدكتور حسام أحمد قاسم ، دار الآفاق العربيّة، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧م : ٣٨٢ .

٣١- الكتاب: لسيبويه : ٩٤/٤ .

٣٢- المصدر نفسه: ٩٤/٤ .

٣٣- المصدر نفسه: ٤٨٥/١ .

٣٤- ينظر : التقاء الساكنين والتخلص منه : ١٩٥ . ١٩٦ .

٣٥- قرأ أهل البادية بالضم (الحمدُ لله) (الفاتحة : ٢) وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة (الحمدِ لِله) بالكسر والراجح عند ابن جني ما قُرِئ بالضم ؛ لكونه أسهل من الإتباع بالكسر: ينظر : المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، أبو الفتح عثمان ابن جني (ت٣٩٢هـ) ، تح : د. علي النجدي ناصف ، د. عبد الحليم النجار ، د. عبد الفتاح شلبي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ، ٢٠٠٤م. : ٣٧/٢ .

٣٦- لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة ، د. غالب فاضل المطلبي ، دار الحرية للطباعة . بغداد ، د. ط، ١٩٧٨م، د.غالب المطلبي : ١٢٠ .

٣٧- ينظر: في اللهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٨٤ : ٩٦.

٣٨- ينظر: اللهجات العربية في كتاب سيبويه ، رسالة ماجستير ، رافد مطشر سعيدان، كلية التربية، جامعة بابل : ١١٤ .

٣٩- ينظر: الكتاب: لسيبويه: ١٠٧/٤-١٠٨، وينظر: لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة : ١٢٠ . ١٢١ .

٤٠- الكتاب: لسيبويه : ١٠٧/٤ . ١٠٨ .

٤١- المصدر نفسه : ١٠٨/٤ .

٤٢- ينظر :الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢م: ٢١٢/٣ .

٤٣- ينظر: المصدر نفسه: ٢١٢/٣-٢١٤.

٤٤- الكتاب: لسيبويه : ٤٥٣/٣ .

٤٥- المصدر نفسه: ٣٠٧/٤ .

٤٦- ينظر: الكتاب، لسيبويه : ٣٠٨/٤ .

٤٧- ينظر: أبنية الصرف في كتاب سيبويه د. خديجة الحديثي ، مكتبة لبنان ، ناشرون، ط٣ ، ٢٠٠٣م : ٩٨.

٤٨- ينظر : الكتاب: لسيبويه : ٤٤٩/٣ .

٤٩- المصدر نفسه: ٤٤٩/٣ .

٥٠- المصدر نفسه : ٤٥٦/٣ .

٥١- ينظر :الكتاب، لسيبويه: ٤٥٦/٣ .

٥٢- ينظر : المصدر نفسه : ٤٥٧/٣.

٥٣- ينظر : المصدر نفسه: ٤٥٧/٣ .

٥٤- دراسات في كتاب سيبويه: د. خديجة الحديثي ، وكالة المطبوعات، الكويت ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، د. ت: ١٩٣.

المصادر والمراجع

١-الكتاب، لسيبويه الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو بشر، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨ .

٢-الأصوات اللغوية : د- ابراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٨٤م: ١٦٩.

٣-اللغة العربية مبناها ومعناها، اللغة العربي؛ معناها ومبناها، الدكتور تمّام حسّان، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٧٩ م .

٤-المقتضب، أبو العباس المبرّد (ت:٢٨٥ هـ)، تحقيق : محمّد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

٥-التشكيل الصوتي في اللغة العربية، الدكتور سلمان العاني، ترجمة ياسر الملاح، جدّة ، ١٩٨٣م.

٦-تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي ، تحقيق: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، مصر، ط ٢، ١٩٤٠ م .

٧-فقه اللغة :علي عبد الواحد وافي، الناشر: نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤: ١٦٦ – ١٦٧.

٨- ينظر: دراسات في فقه اللغة ، الدكتور صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط ٧ ، ١٩٧٨.

٩-التكملة، محمد بن عبد الله البلنسي ابن الأبّار، تحقيق: عبد السلام الهراس، الناشر: دار الفكر للطباعة- لبنان، ١٩٩٥ .

١٠-النكت في تفسير كتاب سيبويه ، يوسف بن الحجاج المعروف بالأعلم الشنتمري (ت٤٧١هـ) ، تح : زهير عبد المحسن سلطان ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الكويت ، ط١ ، ١٩٨٧م : ١٢٣٤/٢،

١١-الممتع في التصريف، ابن عصفور الأشبيلي (ت٦٦٩هـ)، د. فخر الدين قباوة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط٥ ، ١٩٨٣م .

١٢-ملاح الألواح في شرح مراح الأرواح للعيني ، القسم الثالث، تح : عبد الستار جواد

: مجلة المورد : مج : ٥ ، ع ٢ ، ١٩٧٦م .

١٣-الصرف الواضح ، د. عبد الجبار علوان النايلة ، بغداد ، د. ط ، ١٩٨٨م.

١٤-ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الاسكندرية (د-ت).

١٥- التقاء الساكنين والتخلص منه في ضوء الدرس الصوتي الحديث، صباح عطيوي عبود، (أطروحة دكتوراه) ، كلية الآداب / جامعة بغداد، ١٩٩٨م.

١٦-دروس التصريف، القسم الأول في المقدمات وتصريف الأفعال ، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، مصر ، ط٣ ، ١٩٥٨م.

١٧-كتاب المفتاح في الصرف، عبد القاهر الجرجاني، (ت٤٧١هـ)، تح: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٧م .

١٨- الاسس المنهجيّة للنحو العربيّ . دراسة في كتب إعراب القرآن الكريم ، الدكتور حسام أحمد قاسم ، دار الآفاق العربيّة، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧م .

١٩- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، أبو الفتح عثمان ابن جني (ت٣٩٢هـ) ، تح : د. علي النجدي ناصف ، د. عبد الحليم النجار ، د. عبد الفتاح شلبي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ، ٢٠٠٤م.

٢٠-لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة ، د. غالب فاضل المطلبي ، دار الحرية للطباعة . بغداد ، د. ط، ١٩٧٨م، د.غالب المطلبي .

٢١-في اللهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٨٤ .

٢٢- اللهجات العربية في كتاب سيبويه ، رسالة ماجستير ، رافد مطشر سعيدان، كلية التربية، جامعة بابل .

٢٣- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢م.

٢٤- دراسات في كتاب سيبويه: د. خديجة الحديثي ، وكالة المطبوعات، الكويت ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، د. ت.